مجتمع القصور شاهد حي لهوية أَمَة

بامـــــون آمنـــة
جامعة قالمة (الجزائر)

مقدمة:

حين التحدث والتطرق لموضوع عمارة وعمران المدن القديمة والتقليدية غالبا ما نجد الباحثين في المجال من علماء تاريخ وهندسة وعمران. يعالجون الموضوع من جانب هندسي دون الأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين التنظيم الفيزيائي والتنظيم الاجتماعي للمجتمعات المعمرة بهذه المدن القديمة ونتيجة لهذا نجد أنه قلما اهتمت مواضيع العمارة و العمران بالإنسان و ممارساته الاجتماعية والثقافية في المجال، إذ حصر عمل المهندس أو الباحث في المجال بالعمل التقني الفني المحض، إلا أنه في نفس الوقت يعتبر مجالا أنثروبولوجيا يؤلف و يؤسس لموضوع دراسة جد مهم للعلوم الإنسانية التي تبحث جاهدة عن رموز الأشياء والظواهر، حيث لا يعني المجال بالنسبة إليها الفضاء و الفراغ، بل يقترب من المكان ومن الحيز المنظم والموجه والحامل للمعنى الأصلي.

ومنه فإن موضوع بحثنا هذا يصب في مجال قل ما تعرضت له الدراسات والبحوث الاكاديمية وهي دراسة مجتمع القصور، الواقعة في المناطق الصحراوية من خلال خصائصه الاجتماعية والثقافية المختلفة من زاوية أنثروبولوجية، دون إغفال دور العمران الذي ساعد في احتواء الحياة الأسرية للسكان والمحافظة على خصوصياتهم الداخلية .

بحيث يكون الحديث عن ثقافة هذا المجتمع المحلي التقليدي وما يحمله من عادات وتقاليد وأصالة من الضروري المحافظة عليها، في ظل التحولات التي تشهدها المناطق الصحراوية على صعيد تنمية المناطق الحضرية الجديدة التي تستجيب لمتطلبات العصر، اذ نلاحظ ان هذه الأنماط العمرانية التقليدية و المتمثلة أصلا في القصور تعرف تراجعا و هو ما يؤثر سلبيا على استمرارية قيم المجتمعات بما تحمله من سلوكيات محافظة ومعايير قائمة على التعايش والتجانس بين أفرادها، وما يلاحظ على هذا المجتمع محافظته على نسبة عالية من التفاعل والتكامل ورغبته في الحفاظ عليها من خلال أنماط سكنية قديمة. وقد جاءت هذه الدراسة لتأكد مدى صحة المعلومات التي جمعت عن عوامل ظهور هذه المجتمعات والتي لعبت فيها العوامل الاجتماعية دورا هامة في إنشاء هذه الأنماط السكنية " القصور " التي تمتاز بوحدة الشكل وإنشاءها بمواد محلية بسيطة، وقد برهن المنهج الوصفي المتبع والقائم على المعايشة والملاحظة المباشرة على أهمية العلاقات الاجتماعية وتأثيرها على نوعية التوافق والتكيف بين الناس مما جعلهم ينشئون نمط يتوافق مع متطلباتهم وهذا يتضح في الاتجاه السلوكي للجماعات والأفراد. ومنه نحصر إشكالية بحثنا فيما يلي:

إلى أي مدى تأثر الأنماط الحضرية الجديدة بسماتها العصرية على ثقافة السكان المقيمين في المجتمعات التقليدية الممثلة في القصور؟

وهل أن التحولات العمرانية التي تشهدها المنطقة ستؤدي إلى تخلي سكان المجتمعات التقليدية " القصور" عن عاداتهم الاجتماعية؟

مفهوم القصر : يختلف مفهوم القصور في المناطق الصحراوية عامة عن المفهوم الآخر للقصور في المدينة والمناطق الحضرية، وهذا المفهوم المغاير يمكن معرفته من خلال ما اتفقت حوله الدراسات الحديثة بأنه «الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعا نوعيا، والذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية ووقت الحرب للاحتماء به عند هجوم العدو»[1] ،ففي جميع المناطق الصحراوية عامة تعني تسمية " القصر " أو كما يسمى تحديدا

[1] أيوب عبد الرحمن: **من قصور الجنوب التونسي، القصر القديم**، بحث قدم للمؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي، نشر في كتاب النقائش العربية في الوطن العربي، تونس، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ،1988، ص131.

باللهجة المحلية " القصر " تلك المجموعات السكنية التي تشغل أحيانا مساحات صغيرة وأخرى كبيرة وتكون محصّنة أو على الأقل تقع فوق أماكن مرتفعة بالإضافة إلى قربها من الأودية والواحات[2] ، و هو تجمع سكاني مقسم إلى مجموعة من الأحياء الخاصة بكل قبيلة أو عرش تربط بينها مجموعة من الشوارع الضيقة والملتوية القليلة التعرض لأشعة الشمس والتي تلتقي في ساحة عامة (رحبة)، كما يحيط بالقصر سور سميك محصن.

الهيكلة الداخلية للقصر: يتكون القصر في الصحراء أساسا من أربعة عناصر أساسية وهي المسجد والمنازل والطرقات والسوق إضافة إلى الواحة التي تكون محاذية للقصر وتقع خلف السور وسنتناول هذه العناصر المختلفة بشيء من التفصيل.

– **المسجد :** يعتبر من أهم المنافع في القصر لما له من دور أساسي في حياة المجتمع القصوري الصحراوي، فبالإضافة إلى وظيفته الدينية فإنه يعتبر مركز البحث في الشؤون السياسية والتربوية والاجتماعية التي تخص المجتمع، كما يعتبر مركز السلطة المسيرة في قصور الصحراء حيث انعكست أهمية المسجد في حياة المجتمع من خلال موقعه في القصر فهو النواة الأساسية لتخطيط وهيكلة القصر ويحتل المركز والمكان المرتفع فيه فهو أول ما ينشا ثم تأتي بعده المساكن وتنتهي إليه الطرق ليكون قريبا من كل أجزاء القصر فهو بمثابة القلب النابض في جسم المدينة [3].

ويحتوي المسجد على بيت للصلاة وسحن وبيت صلاة النساء ومخزن للمؤونة وفضاء للوضوء، وفي الركن الشمالي للمسجد تنصب المئذنة على شكل هرمي ذو قاعدة مربعة، حيث تشكل هذه الفضاءات حريم المسجد ثم تاتي بعده العناصر الملحقة كالمحاضر التي تعمل على تحفيظ القرآن الكريم وتعليم الدين وتكون منفصلة عن المسجد لكن ليست بعيدة عنه.

أما فيما يخص النسب والمقاييس فيراعى فيها عدم الإسراف والبناء فوق الحاجة وتجدر الإشارة إلى أن المسجد في قصور الصحراء لا يحتوي على أية نقوش أو زخارف بل هو جد بسيط[4].

– **المنازل :** المنازل بقصور الصحراء كثيرة التشابه لا تتجاوز مساحتها 100م² تتكون من طابقين وسطح وعتبة مدخل المنزل التي يبلغ ارتفاعها 10سم هذه العتبة تقي الدار من دخول الأتربة وخروج الهواء البارد أيام الحر الشديد حيث يبقى باب المنزل عادة مفتوح طوال النهار إلا أن المارة في الشارع لا يستطيعون مع ذلك رؤية ما بداخل الدار.

عند تجاوز المدخل تجد نفسك في رواق يسمى بالسقيفة به مقطع حجري منخفض يستعمل للجلوس أمام المنسج في الصيف ورحى تثبت في إحدى زواياها لطحن الحبوب، من السقيفة تنتقل مباشرة إلى وسط الدار المضاء بواسطة فتحة تصل الطابق الأرضي بالطابق الأول تنزل منها أشعة الشمس وتعمل على تجديد الهواء داخل المنزل أنسب موقع حول وسط الدار هو من نصيب قاعة سمر العائلة مدخلها عريض نوعا ما متجه نحو القبلة للاستفادة أكثر من ضوء الشمس، ثم ياتي المطبخ وهو فضاء صغير مفتوح على أحد جوانب وسط الدار وفي الجانب المقابل تجد غرفة النوم الخاصة بالوالدين وفي الزاوية المحاذية للشارع غير زاوية المدخل تجد مرحاضا ودوشا وفي الزاوية المقابلة لمدخل الدار تنطلق الأدراج المؤدية إلى الطابق الأول وموقعها هذا يساعد على تحرك الهواء وتجديده، إلى جانب الأدراج تجد غرفة صغيرة لحفظ المؤونة الغذائية و الأثاث[5].

---

[2]- Despois J: Le **djebel Amour**، Presses universitaires de France، Paris1957، P25.

[3] محمد التريكي، خالد بوزيد: **المعمار والممارسة الاجتماعية ميزاب بين الماضي والحاضر**، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة والتعمير، تونس، 1979، ص69.

[4] محمد التريكي، خالد بوزيد: مرجع سابق، ص70.

[5] بكير الحاج سعيد: **تاريخ بني ميزاب**، المطبعة العربية، غرداية، 1992، ص88.

غالبا ما تجد أمام مدخل الدار بابا لحجرة صغيرة في داخلها أدراج تؤدي إلى قاعة استقبال الضيوف الخاصة بالرجال في الطابق الأول، هذه الأدراج المستقلة عن وسط الدار تجعل حركة الرجال ممكنة من الطابق الأول إلى الخارج مباشرة دون إحراج من بداخل الدار .

تحتوي قاعة استقبال الضيوف التي تسمى لعلي على نافذة متوسطة الحجم يمكن رؤيتها من الشارع تقع فوق باب الدار وهي النافذة الوحيدة للمنزل إذا استثنينا عددا من الكوات فتحات صغيرة .

أما الطابق الأول فبالإضافة إلى غرفة استقبال الضيوف يحتوي أيضا على عدد من غرف النوم ومطبخ ومرحاض ودوش، والباقي تجد نصفه مسقف والجزء الآخر مفتوح إلى لسماء يفصل بينهما عدد من الأقواس، والجزء المسقف هو المكان المفضل لبعض الأعمال في الشتاء لتوفره على أشعة الشمس .

النصف المفتوح يحتوي في إحدى أركانه على الفتحة المطلة على الطابق الأرضي ويمتد إلى جهة القبلة لاستقبال أشعة الشمس في أطول فترة من النهار، أما الجزء المسقف المسمى كومار يحمل مع الغرف سطح المنزل الذي يستعمل للنوم صيفا إضافة لاحتوائه على مخزن الحطب الذي كان يستعمل للطبخ والتدفئة[6] هناك قواعد عامة في الفن المعماري التقليدي لقصور الصحراء يلتزم بها كافة السكان منها :

- إن علو الدار لا يفوق15 ذراعا أو 7.5م .

- لا يسمح بإقامة جدار على حدود السطح من الناحية الشرقية كي لا يحرم الجار من ضوء الشمس صباحا أو مساء، حيث يقال ما يلي"...واتفقوا على بناء البلاد على من هو غربي أو قبلة لجاره، فلا يطلع عليه أو يضر جاره في الشتاء على طلوع الشمس وإن ضاق عليه المكان فيخلف حريم جاره ثلاثة ذروع ويبني فلا يمنعه جاره".

-لا يجوز إسناد الأدراج إلى جدار جاره إلا بإذنه وكذا المستراح أو مرابط الدواب إلا إذا سبق أحدهما الآخر فان الأخير هو الذي دخل على هذه المضرة.

- لا يحدث أحد نافذة مهما كان نوعها إلا برخصة من الجيران ليحددوا له المكان الذي يمكن أن يحدث فيه هذه النافذ أو الكوة.

في كل بلدة يعينون أمينان في عرف البناء ترفع إليهما الشكاوي التي تتعلق بالبناء داخل القصر.

إن الوصف السابق ينطبق على الدار الكاملة التي مساحتها نحو90م² ، حيث يوجد هناك عدد كبير من المنازل أقل اتساعا وتسمى بنصف دار مساحتها نحو 50م² أو بربع دار مساحتها نحو 30 م ²لا نجد فيها إلا المرافق الضرورية للسكن إلا أن كل هذه المنازل تتكون من طابقين وسطح وتخضع للضوابط المعمارية السابقة. إلى جانب ذلك توجد في المدينة منازل لبعض الميسورين تتكون من دار ودويرة متصلتين، فالدويرة يتم فيها استقبال الضيوف وعقد الاجتماعات وهي المكان الخاص برب البيت[7].

السوق: يعتبر السوق من المنافع الهامة لما يمثله من فضاء اقتصادي واجتماعي للسكان القصر بالصحراء سوق واحد يخضع لسلطة المسجد في التسيير والتنظيم والمراقبة بحيث يكون حضور أحد الكبار المعينين ضروري لمراقبة عملية البيع .

يحتل السوق في قصور الصحراء الموضع الأسفل من المدينة ويكون بذلك في طرفها بالقربرمن المدخل الرئيسي لها لتسهيل عملية التبادل مع الأجانب دون الاضطرار إلى دخولهم للمدينة بحيث يشكل هذا الموقع حاجزا ماديا ومعنويا بين داخل المدينة وخارجها .

[6] بكير الحاج سعيد: **مرجع سابق**، ص89.

[7] بكير الحاج السعيد: **مرجع سابق**، ص90.

كما أنه في هذا الاختيار فصل بين الفضاء الديني والروحي للمجتمع والذي يمثله المسجد والفضاء الدنيوي المادي الذي يتمثل في السوق، حيث حافظت القصور الصحراوية على هذه الميزة في مختلف مراحل نموها فكان السوق ينقل من موضعه القديم إلى طرف المدينة كلما وقع امتداد للمدينة مع المحافظة على سوق واحدة .

ياخذ السوق إما شكلا مثلثا أو مستطيلا على شكل ساحة ذات واجهات متعددة ومتقابلة تساعد على التجمع والالتقاء والمراقبة، إلا أن "السوق في قصور الصحراء ليس مجرد فضاء للتجارة وإنما هو كذلك فضاء للالتقاء والتجمع والتشاور والتحاور بين أفراد المجتمع وجماعاته وهو كذلك فضاء للمراقبة الاجتماعية والتاطير السياسي[8]".

فالسوق هو عبارة عن رحبة أو ساحة تحتوي واجهاته الأربعة على حوانيت ودكاكين مجهزة بمقاعد مبنية أمامها على شكل مسطبات على امتداد واجهات السوق، كما يحتوي السوق على البئر والمسطح للصلاة وأروقة مغطاة على امتداد واجهاته في شكل أقواس متتالية، أما فيما يخص النسب والمقاييس فهي تخضع دائما إلى مبدأ عدم التبذير والإسراف .

أما عن انعكاس السوق على الحياة الاجتماعية لمجتمع القصور بالصحراء فيمكن أن نقول:

- السوق الواحدة هو انعكاس لوحدة المجتمع .
- موقع السوق من القصر هو انعكاس لطبيعة علاقة مجتمع القصور بغيره.
- شكل السوق انعكاس لوظيفته الاجتماعية وطبيعة العملية التجارية.
- مكونات السوق انعكاس لطبيعة النشاط فيه.
- النسب والمقاييس انعكاس لحاجيات مستعملي السوق[9].

الطرقات :لا تتجاوز الطرق وظيفتها الرئيسية وهي العبور حيث إنها تمثل قنوات الاتصال بين مختلف منافع ومرافق المدينة، إلا أنها تكتسي أهمية كبرى في هيكلة المدينة في وادي الصحراء لذلك صيغت القوانين التي تضبط أنواعها وتقسيماتها ووظائفها وطرق استعمالها، وفق القيم والمناهج التي تحكم العلاقات والممارسة الاجتماعية .

- **إحداث الطرق:** يكون إحداثها سابق لعملية البناء والتشييد، حيث يتم الاتفاق على ما هو رئيسي فيها في أمكنتها ومقاييسها ومعانيها عند تقسيم الخطط، يقول الشيخ أبو العباس أحمد "وإذا أراد قوم أن يحدثوا منزلا عامة كانوا أو خاصة فانهم يجعلون له طرقه ومجازاته ومنافعه على ما اتفقوا عليه من سعة طرقه وذلك باتفاقهم كلهم العام منهم والخاص أو ما رأى لهم أهل النظر منهم[10]".

- **أقسام الطرق وأنواعها** : لقد تم تقسيم الطرق في قصور الصحراء وتحديد أنواعها ومقاييسها حسب طبيعة ملكيتها والمعاني التي جعلت من أجلها، يقول الشيخ أبو العباس "الأزقة على ثلاثة أوجه منها الشارع الذي يسلكه العامة ومنها السكة النافذة تكون لقوم خصوصيين ومنها السكة غير النافذة تكون للعامة وتكون للخواص[11]"، ولا تخطط إلا عند الشعور بالحاجة إليها.

أما عن طبيعتها ومقاييسها فيقول الشيخ اطفيش" حريم طريق الرجالة ثلاثة أذرع وطريق السقاية خمسة أذرع وكذا طريق الحطابة، وطريق الحمير على اختلاف ما يحمل عليها سبعة أذرع، وطرق الجمال اثني عشر ذراعا على

[8] محمد التريكي خالد بوزيد: **مرجع سابق**، ص73.
[9] محمد التريكي خالد بوزيد: **نفس المرجع**، ص75.
[10] محمد التريكي خالد بوزيد: **نفس المرجع**، ص59.
[11] محمد التريكي خالد بوزيد: **المرجع السابق**، ص 61.

اختلاف ما يحمل عليها، وطريق الماشية كلها إلى الماء والرعي أربعون ذراعا وكذا طريق قوافل الحجا[12]".

- **وظائفها واستعمالاتها** : لقد كانت الطرق انعكاسا واضحا لممارسة المجتمع إضافة إلى تأثير طبيعة الأرض والمناخ الخاص بالمنطقة، فاستعمال الطرق راجع أساسا إلى المعنى الذي جعلت من أجله إلا إذا كانت الطريق خاصة فان إمكانية التصرف فيها بإحداث ما لم يكن من قبل أو نزعه يرجع إلى اتفاق من يملكها يقول الشيخ اطفيش" أما السكة النافذة للخاصة أو غير النافذة لهم فلا يحدث بعض من فيها بابا أو غيره إلا بإذن أهلها كلهم من في سطره ومن في السطر الآخر من في أعلاها أو أسفلها أو وسطها" [13].

وقد رسمت هذه الطرق بشكل دائري وشعاعي وذلك لأسباب منها :

-إبراز المسجد الذي يحتل وسط القصر بحيث يسهل الوصول إليه .

-التأقلم مع التضاريس حيث تساعد الطرق الدائرية على الارتقاء من مكان إلى آخر دون عناء.

- تكون وجهة الشوارع الرئيسية والكبيرة شمالية جنوبية وهذا لكي تكون عمودية مع أشعة الشمس وحركتها الظاهرة، مما جعل الشوارع تكتسب ظلا طوال النهار وتسمح بدخول الرياح الشمالية التي تعمل على استمرار دوران الهواء.

الواحة :إضافة إلى العناصر الأربعة المكونة للقصر في الصحراء، هناك عنصر خامس مهم يكون تابعا للقصر إلا أنه يقع خارجه وهو الواحة .

لكل قصر من قصور الصحراء واحة متفاوتة الاتساع حسب كبر حجم المدينة وصغرها، حيث تعد الأكسجين الذي تتنفس منه وتعكس إهتمام مجتمع القصور بالنشاط الفلاحي الذي يعتبر المورد الاقتصادي الهام للسكان حيث استطاع سكان القصور بالصحراء أن يغرسوا آلاف النخيل وأن يحفروا مئات الآبار في ظل ظروف مناخية قاسية، والاهتمام بالنخلة يعكس قيمتها في نفوس مجتمع القصور، فبالإضافة إلى موردها من التمر تستعمل أيضا كمادة من مواد البناء حيث تستعمل للتسقيف كما يتم بيع حطبها الذي يستعمل للطبخ .

هذه الواحات تحتوي على مساكن تأوي إليها العائلات لقضاء فصل الصيف الحار للتمتع بلطافة الجو هناك، فموقعها داخل البساتين يوفر لها جوا معتدلا ولطيفا، وتصميم هذه المساكن لا يختلف كثيرا عن المساكن داخل القصر إلا أن طابقها الأول معظمه سطح حيث يستعمل للنوم ليلا[14].

الهيكلة الداخلية للمسكن التقليدي داخل القصر: غالبا ما نجد مساكن القصر مكونة ومقسمة كالتالي:

- **المدخل العتبة:** وتعتبر كمدخل وتوضح اختلاف المستوى بين الداخل والخارج وكحد فاصل بين المجال الخاص والعمومي الذي يتحقق بمفهوم الحرمة.
- **السقيفة** :هي مجال يفصل بين الداخل والخارج ويكون دورها في المحافظة على حرمة المنزل عن طريق كسر الرؤية من الخارج والمساهمة في عملية التهوية إلا أنها عموما تكون مفتوحة كما تسمح بالمراقبة والاستقبال لأنها سهلة الوصول.
- **الرحبة وسط الدار** :هي مجال يتوسط المسكن لها خصوصية تهوية المسكن وتنظيم الداخلية كما تعتبر مكان لمختلف الأنشطة التي تقوم بها ربات البيت.
- **المطبخ** :هي مجال لتحضير مختلف الوجبات الغذائية .

[12] محمد التريكي خالد بوزيد: **نفس المرجع**، ص ص 61-63.

[13] محمد التريكي خالد بوزيد: **نفس المرجع**، ص63.

[14] بكير الحاج سعيد: **مرجع سابق**، ص92.

- **المخزن** :هو مكان يتم فيه تخزين أكياس التمور ومعدات ليست دائمة الاستعمال وهو مستطيل الشكل
- **السلم** :مرتبط مباشرة مع الرحبة يسمح بالانتقال من المكان الأرضي إلى السطح.
- **السطح** : هو مجال موجود في أعلى المنزل مفتوح إلى الهواء مباشرة ويستعمل عادة في النوم في فصل الصيف عند اشتداد درجة الحرارة .
- **الكنيف** :هو مرحاض يوجد في أعلى المسكن فوق السطح ويتصل مباشرة مع الأرض.
- **بيت الشياه، الزريبة:** هو فضاء مخصص لتربية الغنم ويكون بجوار الكنيف وذلك لتسهيل عملية جمع الفضلات وإخراجها إلى الأرض الزراعية.

العادات والتقاليد: لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية مجموعة من الخصائص والمميزات الاجتماعية والنفسية والمعيشية والتاريخية التي تعبر عن كيان ينصهر فيه جميع أفراد المجتمع، هذه الخصائص والمميزات هي ما يطلق عليه اسم الهوية الثقافية. وتعتبر الثقافة عنصرا هاما من عناصر التراث الاجتماعي وتشمل الثقافة فيما تشمله ما يتلقاه الفرد من مظاهر الفنون والعلوم والمعارف والفلسفة والعقائد وما إليها.

ويشمل التراث الثقافي أمورا معنوية وأخرى مادية ولا تقل أحدهما عن الآخر وتعد العادات والتقاليد من مكونات الثقافة وتعتبر العادات والتقاليد الميزة الأساسية الثابتة والمتغيرة نسبي لا تخلو منها المجتمعات ومنها المجتمع الجزائري بصفة عامة ومجتمع القصور بصفة خاصة جدا، لأن العادات والتقاليد في هذا المجتمع تحديدا تعبر عن إرث ثقافي غني لا يستهان به في كثير من الأوقات بل تتعداه الى رسالة يحملها كل فرد منهم إلى أي مكان معبرا بذلك عن هويته وهو ما سنوضحه فيما يلي:

العلاقات داخل "المسكن التقليدي

العلاقات داخل العائلة : تمتاز العلاقات داخل العائلة في المسكن التقليدي بالتعاضد والتآزر والتماسك والعصبية ليس بسبب اعتماد أفرادها على بعضهم البعض في مختلف حاجاتهم بل لأنهم بذلك التعاضد كما قال ابن خلدون "تشتد شوكتهم جانبهم وتعظم رهبة العدو لهم "فالعصبية الأسرية تقوم على أواصر الدم واللحمة النسبية "المصاهرة "والتوحد في مصير مشترك فيقاسم أفرادها الأفراح والأحزان والمكاسب والخسائر والكرامة ...الخ "ومنه فإن أفراد الأسرة في قصور الصحراء بشكلها النووي والمركب يتوقعون الكثير من بعضهم البعض وحين يأتي تصرف البعض دون مستوى التوقعات تكون خيبة الأمل كبيرة وينشأ توتر في العلاقات الأسرية ، [15]فالعلاقات بين الأب والابن وفي العائلة التقليدية القصورية جد محترمة لم يكن لابن أن يقف في وجه والده إلا أن فاعليته لم تكن تتبدل في مسلكه كابن في إطار الأسرة، أما على مستوى الأم فإن علاقتها بزوجها أقل ديمومة أو ربما تحول علاقتها بزوجها إلى مجرد معيل ومرجع للسلطة في الأسرة ومسؤول عن تأمين رزق الأسرة وحمايتها[16]ومادامت الأسرة هي الخلية الأولى التي تظهر عن طريق الزواج وهي علاقة بين الرجل والمرأة وفق تقاليد الجماعة ووفق قوانين عامة وهو أيضا المحافظة على الاحترام الاجتماعي والامتثال لرغبات الأهل والأقارب[17] وهذا الزواج يؤدي إلى بناء أسرة وهي عبارة عن جماعة اجتماعية صغيرة تتكون من الأب والأم والأبناء[18].

---

[15] حليم بركات: **المجتمع العربي في القرن العشرون**، مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى 2000، ص355.

[16] فرانز فانون: **سوسيولوجية الثورة**، ترجمة دوفان قرقوط، دار الطبيعة، بيروت1970، ص30.

[17] سناء الخولي: **الأسرة والحياة العائلية**، دار النهضة العربية، بيروت1984، ص44.

[18] محمود حسن: **مقدمة الخدمة الاجتماعية**، دار النهضة العربية، بيروت، ص252.

وبما أن بناء الأسرة لا يتم إلا بواسطة علاقة الزواج التي تعد علاقة جوهرية ومن الناحية التاريخية يعد أول عقدة في شبكة العلاقات التي تنتج لمجتمع القصور أن يؤدي نشاطه المشترك ،فالزواج لا يقف من حيث الإنتاج وفي الحدود النمو العددي بل يتجاوزه في هذا المجتمع تحديدا إلى نمو في العلاقات، قال " محمد البهي "نمو الإنسان في مجتمعه إذن ليس نمو عدديا فقط وإنما هو مع ذلك نموا في العلاقة بين أعداده و افراده و قبائله مما يحقق بين أعداده الكثيرة والمتزايدة معانى المجتمع و هدفه من الاطمئنان والسلام والمودة في علاقات الأفراد، و لعل خير دليل على ذلك ما قام به اجدادنا سابقا في حوالي سنة 1500 من اجل ضمان الامن و الاستقرار قاموا بدمج العروش من خلال التزاوج و تبديل بعض العائلات[19].وقد نظر القرآن على الزواج كمكون أولي من مكونات المجتمع إذ أن العلاقات بين الأفراد تقوى بالاطمئنان وهو التقاء بين جنسين مثل فكر بفكر[20].

القرابة والعلاقات الاجتماعية :هي مجموعة الصلات الرحمية النسبية تربط الأفراد بوشائج عضوية واجتماعية متماسكة تلزمهم بتنفيذ التزامات ومسؤوليات وواجبات تفيد أبناء الرحم الواحد أو النسب الواحد، و في قصور الصحراء نجدها ممثلة من خلال علاقات تقوم على التفاعلات المباشرة أي أن سكان القصور يحتكون مع بعضهم وجه لوجه دون الحاجة إلى وسطاء والروابط القربية ،فتمتد إلى المجالات الاجتماعية الأساسية في الحياة خصوصا المجال الاقتصادي والسياسي والزوجي والعقائدي وحتى الترفيهي وهكذا يمكن القول أن مجال الروابط القربية في هذا المجتمع التقليدي ينطوي على الحياة بكل أبعادها في هذا الصنف من المجتمعات وهذا يجعل من وظيفتها في هذه المجتمعات بالغة التعقيد[21] ورباط النسب الذي يشبه المنحدرين من سلف او عرش واحد أو هو الرباط الذي يميز الفرد المنتمي إلى جماعة قرابية عن باقي الأفراد خارج جماعة القرابية بواسطة منحه انحدار وراثي دموي ينحدر إليه كمرجع قرابي يتقلب به[22]،كما ان القرابة في قصور الصحراء تعتبر مجموعة علاقات اجتماعية تأخذ نمطا دينيا وقانونيا وأخلاقيا وتعبر عن العلاقة الاجتماعية تعتمد على روابط الدم[23].

الجيرة والعلاقات الاجتماعية : بما ان حياة الفرد في القصور الصحراوية من مولده إلى وفاته تتم في نطاق أسرته فانه ليس بحاجة إلى إنشاء علاقات تتعدى حدود أسرته وجيرانه ان صح التعبير محيطه العمراني أي القصر، حيث يجد عالمه ينحصر فيه وكان لذلك علاقات قائمة على التشابه والفرد يشارك مع جاره في معظم مظاهر الحياة فهناك التي تجعلهم يدخلون بها في نطاق علاقات محددة واشتراكهم في عالم صغير يجعلهم يشتركون في عمل واحد مثل الزراعة أو الأعمال التابعة لها، واشتراكهم في حيز مكاني يخلق نوعا من العلاقات القائمة على التساند المستمر من أجل مصالح هناك من يرى أن علاقات الجيرة تكاد تكون قرابة وما يؤكدها الانتماء الجغرافي وآثاره في خلق نفس الظروف وتستمر الجيرة بطابع التعاون التلقائي والشعور بالانتماء الجغرافي يجعلهم يشتركون في قيم وعادات وتقاليد واحدة وعلاقات الجيرة قد تتطور إلى مرحلة الأسرية فالطفل مثلا منذ صغره لا يخرج من هذا العالم الصغير بين البيت والجيران فيعمل لصالح جيرانه وتكون علاقات مبنية على التعاون أبرزها التويزة الشكل الدائم للمساعدة الودية القائمة على تبادل المصالح وتتسم بطابع الإحسان[24]وتعد المرأة محك لتثمين علاقات الجيرة بمشاركتها في كل المهن وتعد الوسيلة الأولى

---

[19] محمد البهي: **منهج القرآن في تطوير المجتمع**، دار الفكر، الطبعة الأولى، القاهرة1993، ص53.

[20] البهي الخولي: **الإسلام والمرأة المعاصرة**، دار العلم، الطبعة الثالثة، الكويت، ص58.

[21] معن خليل عمر: **علم اجتماع الأسرة**، جامعة اليرموك، دار الشروق للنشر والتوزيع، المركز العربي للمطبوعات الجامعية، بيروت، ص146.

[22] معن خليل عمر: **نفس المرجع**، ص152.

[23]– دينكي ميشال: **معجم علم الاجتماع**، ترجمة إحسان محمد حسن، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت1981، ص130.

[24]- Andree Michel، **Sociologie de la famille** ،**P** U F,1972,P18.

تقوية روابط الجيرة، إذ تعتبر الحارة وعلاقة الجيرة والمسكن الخير المكاني الذي يقوي علاقاتها به، علاقات المحبة والجيرة تنفي كل أساس من الصراع وهوة أساس يرسمه العقل الجمعي لعروش القصور كي يسير عليها الأفراد.

الممارسات: خلافا لكل ما سبق ذكره نجد ان التقاليد و العادات بالصحراء مختلفة عن غيرها من البلاد و ذات ميزة خاصة و ذلك نتيجة للتنوع الذي تكتسيه من جميع الجوانب الثقافية و الاجتماعية و حتى اللغوية، فلكلٍّ صبغة ووجهة و هدف ، فهي مطبوعة بطابعها الديني الخالص ، بحيث لا يتسرب إليها تدجيل أو حذلقة أو تصوف مقيت أو جمود أو تزمّت عائق عن العادة النفسية ، و العمل لحياة مشرفة نظيفة بلا وقوف على ركن الرجعيات البالية و هجنة التقاليد المشوبة بالشعوذة ، و الاستسلام للتوكل الأجوف و العبادة الجافة البعيدة عن معاني الروح" تتميز بالاعتدال ، فلاهي متشددة جامدة ، و لاهي فاسدة متأثرة نعرض لكم هنا بعض العادات و التقاليد و المناسبات و الممارسات المهمة و المختلفة:

الغـذاء: اشتهر سكان القصور بالصحراء بعدم تكلفهم في أمور كثيرة من بينها الغذاء ،فهم لا يحبون الإكثار من التفكير فيه لأن ذلك يلهيهم التفكير في مشاغل الحياة ويجعلهم يشتغلون ليأكلوا فقط، لذلك تجدهم يأكلون بكل قناعة بما لديهم، وما توفروا عليهم والخيرات كثيرة في المنطقة ، فأرض الصحراء غنية بالبساتين و الواحات المزدانة بأنواع الخضر و الفواكه كما ان امتلاك الحيوانات أمر مهم عندهم، إضافة الى أن تربيتها لا تحتاج لجهد كبير طالما أن الواحات المحيطة و القريبة من القصور تزخر بغذائها وحتى وان لم توجد كل هذه، فالطبيعة لوحدها تحتوي على أنواع كثيرة من النباتات التي تصلح للأكل ومختلف الحيوانات البرية التي يجوز أكلها أما بالنسبة لعاداتهم فيما يخص الغذاء ،فيمكن القول أن السكان يعتمدون على أكلة واحدة كغذاء أساسي والباقي وفق الاستثناء ، فنجد الكسكس وأنواعه هو الغذاء المعتمد ،أما الخبز أو الحلويات أو الفواكه فهي إما علي حسب القدرة أو المناسبة.

اللباس والحلي والنسيج:

الزرابي التقليدية : تنسج انساء المجتمع القصوري بالصحراء نوعا جميلا من الزرابي، وهو قديم كانت قديما تُنسج من وبر الجمال، أو صوف الغنم، ثم اقتصر نسجها على الصوف، وتنسج الزرابي على المنسج التقليدي، كما تتعلم البنات النسج عليه في سن مبكرة. يغلب على الزرابي الصحراوية التقليدية اللون الأحمر القاني المائل إلى البني وترسم فوقه أشكال ورموز محلية تقليدية خاصة بكل عرش من العروش وقصر منهم ذات أبعاد تاريخية وثقافية وتراثية مختلفة ومن كثر أهميتها تقام لهذه الزربية أعياد ومهرجانات خاصة، إلى اليوم، أشهرها: مهرجانات للزربية الصحراوية ويقام كل عام بسوق المدينة.

اللباس التقليدي يتكون لباس سكان القصور التقليدي عادة من سروال مترابط غير مفصل على الرجلين و هو منتشر في بوادي مصر و الشام يسمى بسروال عرب او لوبيا سواء بالصحراوية او العربية، يكون سروال أبيضا في المناسبات و الأعياد و أوقات الصلاة و الاجتماعات ، أما في وقت العمل ، فيرتدون سروالا ملونا حفاظا على النظافة و طاقية بيضاء تطبيقا لسنة الرسول (ص) في تغطية الرأس ، و هناك كذلك القميص الصحراوي المعروف بـــ : تاجربيت بالصحراوية ، و في أوقات الصلاة يرتدون اللباس السابق ذكره , و يرتدون فوقه جبة بيضاء القندورة تعبر مرة أخرى على اتحادهم, و لا يدخلون المسجد عادة دون جبة بيضاء.

أما النساء، فنجدهن يرتدين جميعا لباسا موحدا، عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلفها المرأة حول جسمها كله، بحيث لا يظهر منها شيء، ولا تترك إلا فتحة صغيرة حول العين لترى بها بالنسبة للمتزوجة اما الفتاة فتترك وجهها كله، في صورة مميزة لتطبيق التعاليم الإسلامية، أما بالنسبة للعروس فان اللباس الرسمي لها هو الملحفة الحمراء والبيضاء.

الحلي: تمثل الحلي في قصور الصحراء رموزا تجسد الحياة بأكملها بكل ما تحمله من فرح وحزن وخوف ، فتلك الحلي هي نتيجة لفن صحراوي تقليدي عفوي تجسدت فيه مختلف العادات والتقاليد والمعتقدات التي رسخت في أذهان سكان هذه المنطقة ، و لم يكن الدافع من صنعها والتفنن فيها للتجارة حيث ان قيمتها الجمالية والرمزية أكبر عندهم من كونها مجرد وسيلة للربح، فالمجوهرات في هذه المنطقة مصنوعة من معدن الفضة ،ومع اختلاف القصور و العروش و شاسعة المنطقة تعددت الطرق التي تفنن أصحابها في صناعة هذه الحلي والإبداع فيها ، لكن ومع اختلاف طريقة صنعها أو بعض التفاصيل الخارجية لها، تبقى لغتها واحدة تعبر عن هذه البيئة بكل ما فيها من تفاعلات اجتماعية.

فالحلي تستخدم في العادة للزينة، لكن في منطقة تعيش وفق معتقدات وعادات معينة، استخدمت الحلي كمظهر يوحي بشكل مباشر إلى مكانة الفرد في هذا المجتمع فقد كان يحلو للنساء ارتدائها وهن في كامل عزهن وتميزهن ، بما يمتلكن وما وصلنا إليه ، فالناظر من بعيد سيفرق بين الطبقات الاجتماعية من خلال حليهن ،ذلك أن بعض الحلي لا يمتلكها إلا الأغنياء و ذوي المكانات العالية في المجتمع حتى أن المعاملات تختلف حسب المظهر، إلى جانب استعمالها كأداة لإظهار المكانة الاجتماعية كانت الحلي درعا يحمي لابسه من الأخطار كالسحر مثلا ، فالحلي التي لها شكل يد مفتوحة استخدمت لدرء الحسد ، ورأس الثعبان في الخلخال –حلقات الأرجل– رمزا للحياة والوجود، كما وقد استعملت الحلي في مناسبات معينة دونا عن الأخرى ، بمعنى أن بعض الحلي تصنع وتوضع لمناسبات خاصة مثل موسم الزراعة وحلول الربيع ، بالإضافة لكونها ترمز لوضعية المرأة في العائلة ، إن كانت عروس مثلا أو أم لمولود ذكر أو حتى أرملة .

لكن رغم تعدد وظائفها إلا أنها كانت موحدة الألوان، فلا يستخدم في تزيينها إلا ألوان معينة لا يحيدون عنها وهي ألوان زاهية كالأزرق والأخضر والأصفر، التي ترمز إلى الطبيعة الخلابة التي تأثر بها السكان اشد الأثر، كما استخدم اللون الأحمر في تزينها بالخصوص في الجهات الغربية للمنطقة والمرجان في الجهات الشرقية عوض اللون الأحمر.

المناسبات:

الأعراس: تقام الأعراس في دار كبيرة تابعة للعرش و تسمى بدار السبيل او دار العشيرة، و تتسم أعراس أهل الصحراء , بأنها خالية تماما من الاختلاط بين النساء و الرجال , و أنها خالية من الانزلاقات الشرعية , الذي تتصف به الكثير من الأعراس في العالم الإسلامي للأسف , كما أن أعراسهم غالبا ما تكون جماعية دائما , و هذا لرفع الحرج عن الفقراء من العرسان في تحمل مشقة نفقات العرس.

الأعياد والزيارات: إن أهم ميزة في المجتمع القصوري التقليدي بالصحراء انه يزخر بكم هائل من الأعياد والاحتفالات الدينية والدنيوية المختلفة منها مايلي:

– عيد المولد النبوي وأسبوعه والذي يقام باحتفالات عديدة تقام فيها ليالي من المدائح الدينية وإقامة والولائم والبارود

– عيد الزربية هو عيد يقام سنويا تباهيا وافتخارا بزربية كل قصر من القصور وسط احتفالات فلكلورية تقليدية.

– عيد الزيارة هو عيد يستقبل فيه سكان القصور فصل الربيع الجميل, و يشكرون فيه الله على نعمته طول الشتاء. يخرج فيه ال سكان في الصباح الباكر ويطوفون حول المدينة تالين لدعاء معلوم وهو: " بسم الله يا الله يا رحمن، يا رحيم يا الله وارحمنا"، وداعين الله أن يحفظ مدينتهم من كل شر، كما يزور سكان القصور أثناء هذه الجولة الأماكن التاريخية للمدينة، ويرافقهم عالم أو شيخ عارف، حيث يقدم لهم شرحا وافيا حول تاريخ تلك الأماكن، كما يقومون بزيارة مقابر المدينة، العتيقة منها والجديدة، ويترحمون على الأموات. هناك بعض الاستثناءات، حيث تقام في بعض القصور نشاطات ثقافية متنوعة بالمناسبة يكون غداء يوم الزيارة عادة غداء عائليا في بساتين القصور.

البيئة التقليدية القديمة والتفاعل الاجتماعي حاليا:

من خلال ما سبق ذكره نرى ان التفاعل الاجتماعي يلعب دورا فعالا في شحن الحياة الاجتماعية وتمتين العلاقات بين أفراد المجتمع القصوري، فالقصور العتيقة رغم افتقارها إلى الكثير من المزايا التقنية والفنية التكنولوجية، نجحت في استيعاب الإنسان المستعمل لها داخلا وخارجا، هذا ما يخدم الوجه الحضاري للمجتمع و يعبر عن هوية امة كاملة بكل متغيراتها فرغم الاختلافات الموجودة بهذه المنطقة، الا اننا نجد ان القصر هو من يجمعها و يلبي الحاجات الضرورية للأسرة دون تعقيدات الكماليات، خاصة وأنه يوفر جوا من العلاقات الحميمية المستمرة منذ أمد طويل لمحافظته على علاقات القرابة والجيرة وغيرها من شبكة العلاقات الاجتماعية بشكل عجيب اذ حين نتعمق في المحتوى الانثروبولوجي لهذه المجتمعات نرى انها تصب في مجرى واحد و نفس الهوية بصبغة و لون مختلفان فقط لا غير.

و منه فان أهمية التفاعل الاجتماعي في تشكيل المجالات على مستوى النسيج العمراني أو على مستوى الوحدة السكنية يسمح للفرد بمعرفة نفسه من خلال العوالم الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي تختلف في حجمها والتوزيع المجالي للمشتركين فيها ومدى انتماء أفرادها إلى تلك العوالم، يضاف إلى ذلك ما يخلفه تفاعل الناس من فئات وأصول مختلفة من علاقات حميمية تساهم في إحداث تغيرات إيجابية في مواقفهم تجاه بعضهم البعض، فحدوث التفاعل الاجتماعي الإيجابي الكافي بين سكان البيئة التقليدية العتيقة يقلل من إمكانية حدوث وانتشار مختلف الأمراض الاجتماعية.

و هو ما يؤكد أن هذه القصور مصممة حسب حاجات ومتطلبات الأسرة من حيث توفير الحماية واحترام الخصوصيات، وتدعيم جميع أنواع العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة وبين الأقارب والجيران.

خاتمة:

أخيرا وبعد كل ما ذكر نرى ان القصور الصحراوية بولاية الصحراء ضمت وأسست لتنوع اجتماعي وثقافي وارث معماري زاخر وغني جدا وكانت بمثابة مدرسة أنثروبولوجية قائمة بذاتها لأنها حوت العديد من الاختلافات التي تؤدي في نهاية المطاف وتعبر عن هوية وموضوع واحد ومجتمع متماسك رغم الاختلافات الموجودة به.

لكن وللأسف الشديد ومع الحضارة خصوصا العمرانية التي امتازت بها المدينة والخروج عن هذه القصور حتى دخول بعض السكان غير الأصليين لها أدى للعديد من المشاكل أهمها فتور العلاقات الاجتماعية والروابط الاسرية وهو ما يؤدي بنا للتدهور والزوال يوما بعد يوم، وفي كل الجوانب والمجالات بداية من العمران والعمارة لغاية المبادئ والعادات والتقاليد ما من لبنة نفقدها الا ونفقد معها هويتنا وأنفسنا.

و منه فإن ثقافة أي مجتمع عنصر مهم جدا يجب الحفاظ عليه ودعمه وفي هذا الصدد فإن طريقة بناء المساكن والمواد المستخدمة في ذلك والسياسات الخاصة بالسكن وكل التخصصات التي يصب اهتمامها في محور الأسرة والمسكن بشكل عام يجب أن تراعي على نحو مناسب الثقافة المتأصلة فيه، ويجب على سياسات التطوير والتحديد الخاصة بالمسكن ألا تفرط وألا تغفل عن حقيقة وأهمية الأبعاد الثقافية والاجتماعية الخاصة بالمسكن التي تحافظ على الوجود الإنساني الأسرة بحيث لا تتحول إلى ركن من أركان المسكن تتحكم فيه السياسات الخاصة والعامة وفق ميولاتها الشخصية.